خـالد محيـى الديـن (١)

" تعلمت من دراويش تكية النقشبندية أن
التدين هو خدمة البشر ، وأن الدين
يعنى السماحة وأن التعبد الحقيقى هو أن تهب
نفسك للتفانى فى خدمة الناس"
خالد محيى الدين فى كتابه الآن أتكلم

كتب إميل لودفيج كتباً عظيمة .. عن رجال عظماء كنابليون وعن أشياء عظيمة ، فكتابه عن نهر النيل يبقى على مر الزمن ملهماً لكل من عرف النهر وأحبه ، وتبقى صورته أجمل وأكثر دقة حتى من صور الأقمار الصناعية .

لكن لودفيج حذرنا "لا تصف الجبل" هو من بعيد مهيب ، فإن اقتحمت شعابه أو حاولت ، أكتشف أن كل مساحة من مساحاته مهما صغرت أكثر مهابة .. من أن توصف . فهل نصف الجبل ؟. أو نحاول ؟

فى بيت إسلامى الطراز ، وإسلامى الرحيق ، ساحة واسعة تتدفق مياه نافورتها الرخامية محاطة بورود وأشجار وتمر حنة .. فى ظلال قبر الجد الأكبر لوالدته الشيخ الخليفة "محمد عاشق" .. القبر والمسجد والدراويش .. الآذان يرفع فى مواقيته والصلاة أيضاً .. إنها تكية الطريقة النقشبندية .

الطفل يقفز من حجر جده "الشيخ عثمان خالد" شيخ الطريقة وناظر الوقف الى رحاب المسجد .. إلى الحديقة إلى غرف الدراويش .. ومن هؤلاء الدراويش تعلم .. تعلم أن التدين هو خدمة البشر وأن الدين يعنى السماحة ، وأن التعبد الحقيقى هو أن تهب نفسك للتفانى فى حب الناس . ذهنى أفندى ، أيوب أفندى ، عثمان أفندى أسماء لدراويش لا تنسى أبداً فى ذاكرته أحدهم يعلم سكان الحى ، آخر يخيط الثياب ، وثالث يصلح الساعات لكل وافد

.. وكل ذلك مجاناً . ألم نقل إنهم يتعبدون عبر خدمة البشر .. ومنهم تعلم الفتى ، وعلى نهجهم سار ، ويظل حتى الآن .

باب التكية مفتوح أمام كل عابر ، ولا يغلق إلا مساءً . فالدراويش لا يغلقون بابهم أمام الناس ، وهو حتى الآن .. لا يغلق بابه أمام الناس . ونقرأ مع الفتى عندما كتب بعد زمان طويل "كان الآذان هادئاً وديعاً ، وكأنه دعوة حانية إلى لقاء حميم .. هذه العلاقة الحانية مع الدين ظلت تتملكنى حتى الآن ، ولم يزل طيف عثمان أفندى يمنحنى الكثير من السكينة عندما أتذكره ، وهو يعطى للناس كل وقته كى يعلمهم القراءة والكتابة ، ويبدو طوال وقته معهم سعيداً وممتناً لأنهم يقدمون له صنيعاً ، إذ يتيحون له فرصة كى يتقرب أكثر إلى صحيح الدين" .

.. هل عرفتموه ؟ أنه هذا الذى يواصل خدمة الوطن والشعب ، يواصل خدمتهم ممتناً لأنهم يتيحون له الفرصة كى يصبح الى الله أقرب ، والى الوطن والشعب أقرب .

هو والأم يعيشان عطر التكية ، بينما الأب يعيش نفس فى الوقت فى كفر شكر حيث أرض الأسرة ، وبيت الأسرة (الجد محيى الدين تاجر فى القطن وامتلك مئات الأفدنة .. وهو الذى أدخل إلى منطقة كفر شكر زراعة البرتقال والعنب ، والمانجو ، ومن هنا ارتبط أسم "محيى الدين" باسم كفر شكر) .

وتأتى الأجازة الصيفية ليسرع الفتى إلى كفر شكر حيث الانطلاق والكرة الشراب والاندماج مع أبناء الفلاحين .. وبين كفر شكر والتكية تمضى الحياة لتنسج معها . فتى من نسيج خاص .

.. من المدرسة الابتدائية ، إلى الإبراهيمية الثانوية ثم مدرسة فؤاد الأول (فى ذات الفترة كان معه فى ذات المدرسة أنو السادات وزكريا محيى الدين) .

وفى هذه المدرسة الصاخبة بالعمل السياسى يندمج الفتى مع مناخها المحموم .. مظاهرات حوارات يدور أكثرها حول الاحتلال .. الدستور .. القصر .. ثم يأتى عام ١٩٣٦ ليدور الحديث عن المعاهدة .

ويتعلق إعجابه هذه الأيام بمصر الفتاة وأحمد حسين .

وفى عام ١٩٣٨ يصبح طالباً فى الكلية الحربية .. "كان أبى يؤمل أن يرسلنى إلى أمريكا لأدرس الزراعة الحديثة حتى أحصل على الدكتوراه ، لكننى كنت أندفع بإتجاه آخر

، كانت الروح الوطنية تلهب مشاعرنا نحن الشباب فى هذه الفترة ، وكنا نشعر أن مصر بحاجة إلى جيش حقيقى قادر على حمايتها ، جيش وطنى يعمل من أجل الوطن .. وهكذا تعلقت بفكرة الانضمام الى الكلية الحربية " .

* * *

عمره الآن ستة عشر عاماً وثلاثة أشهر .. الفتى يصطف مفتوح الصدر فى أول طابور عسكرى فى الكلية الحربية . هناك يخط التاريخ بدايات صفحة جديدة فقد تراكمت فى هذه الأيام بالذات ، وفى هذا المكان بالذات ذات الأسماء التى غيرت تاريخ مصر ، معه فى دفعته : مجدى حسنين - لطفى واكد - صلاح هدايت - ثروت عكاشة - حسن إبراهيم (كان امباشى) - صلاح سالم (امباشى) - كمال الدين حسين (شاويش) - عبد اللطيف بغدادى ثم زكريا محيى الدين ، يوسف صديق ، أحمد عبد العزيز مدرسين .

تقاليد الدراويش النقشبندية تستضيف الى جوارها وفى رحابه صدر من روح وطنية دافقة ، وحوارات هامسة عن الوطن . الانجليز . الحرب . القصر .. الحرية .

.. "وذات يوم همس مجدى حسنين فى أذنى : "شايف اليافطة دى" كانت لافتة من الورق مثبته على باب غرفة المستشار العسكرى الانجليزى بالكلية ، تهامساً . تركز عداؤهما للافتة مكتوبة بالانجليزية . كتباً بديلاً لها باللغة العربية .. وفى المساء صححا الوضع . وكانت هذه خطوته الأولى فى التمرد الفعلى .. إدارة الكلية أبتلعت اللطمة .. ولم تتحرك .

يتخرج الفتى وهو فى الثامنة عشر . ويصبح "الملازم ثان بالآلاى الأول دبابات" . ضباط الفرسان يزهون دوماً بلباسهم المميز . وباسم " الفرسان " وهو فى الحقيقة سلاح المدرعات لكنه ما إن يتخرج حتى يكتشف أن الانجليز قد أخذوا (بسبب خسائرهم فى الحرب) دبابات ثلاث آليات - ولم يبق لمصر سوى آلاى واحد من الدبابات .. ويقول "لأول مرة أشعر من موقعى كضابط فى جيش مصر ، أننى أكره الاحتلال، وأننى ضد الاحتلال .. وزاد من عمق هذه المشاعر أننى اصطدمت بوجود ضباط انجليز فى الجيش المصرى كانوا مترفعين ويحصلون على مرتبات عالية جداً بالنسبة لنا ، بما أشعرنا أننا فى وطننا وفى جيشنا ضباط من الدرجة الثانية .

ويكون حادث ٤ فبراير ، ويحتشد مع زملائه الضباط فى اجتماع صاخب فى ناديهم ليحتجوا على وقاحة الانجليز .

ثم يقبض على الضابط حسن عزت ، ويودع فى ميس الفرسان ، ويستمع "خالد" فى انبهار إلى إصرار صاخب للدفاع عن الوطن وحريته .. ولأول مرة يشعر أن واجبه كضابط مصرى يحتم عليه أن يفعل شيئاً .. (بعد الثورة غضب منه عبد الناصر لأنه كتب مقدمة لكتاب لحسن عزت قال فيها عنه "أنه أستاذى فى الوطنية" عبد الناصر قال أن هذا لا يليق فحسن عزت ليس معنا ، خالد قال إن هذا هو الحق .. والحقيقة يجب أن تقال) .

"أن يفعل شيئاً" تلك هى المشكلة التى كانت تسيطر على مئات من الضباط مثله ، لكن البعض سأل نفسه ، ثم نسى السؤال ، ونسى نفسه فى دوامة الحياة ، والبعض الآخر ومنهم " خالد " بقى دوماً معلقاً آماله بأن "يفعل شيئاً لمصر وشعبها" وفى هذه الأثناء أصبح صديقاً لضابط مثقف شغوف بالقراءة.. ماركسى الاتجاه هو ضابط الفرسان عثمان فوزى .

وحول عثمان فوزى ألتفت مجموعة من الضباط عودهم على القراءة المنظمة "القراءة التى تتطلع بحثاً عن إجابات محددة" .

* * *

وفى عام ١٩٤٤ وفيما يفكر فى كيف ؟ ومتى ؟ ولماذا ؟ يتحتم عليه أن يفعل شيئاً ، إصطحبه الضابط عبد المنعم عبد الرؤوف ليعرفه بجمال عبد الناصر . ثم أخذه عبد المنعم عبد الرؤوف ليقابل ضابطاً آخر هو محمود لبيب (الإخوان) . وكان أول لقاء بينهما فى جزيرة الشاى فى حديقة الحيوان .

وفى بيت الضابط مجدى حسنين والضابط أحمد مظهر (الفنان) بدأت اجتماعات مجموعة من الضباط الشبان ذوى علاقة ما بجماعة الإخوان .

أسئلته التى تؤرقه عن مصير الوطن ، وحالة الشعب ظلت بلا إجابة ، قابلوه مع حسن البنا لعله يمنحه هدوءاً ، لكن المرشد العام لم ينجح فى إسكات صوت الوطنية الصاخب ، والغلاف الدينى المتشدد ، لا يستطيع أن يخترق ما منحه دراويش التكية من حصانة وديعة تؤمن بإيمان هادئ وديع .

وبرغم أنه بايع هو وجمال عبد الناصر مرشد الجماعة .. بيعه عضو الجهاز السرى على المصحف والمسدس .. وفى "المنشط والمكره" فقد تباعدا ، رويداً رويداً ، لم يجدا فى فكر الجماعة ما يقنع ، ولا فى طريقها ما يغرى أى ضابط يريد الحرية لوطنه وشعبه .. بأن يبقى على بيعته .

ونسرع سريعاً نتجاوز عديداً من المسالك الزاهية الألوان .. لأن التوقف أمامها يحتاج إلى مجلدات .. ألم يحذرنا أميل لودفيج من قبل .

× التقى به صديق قديم "أحمد فؤاد" ، هو وعلى شلقانى عرضاً عليه الانضمام إلى منظمة شيوعية (ايسكرا) .. وافق . كان لم يزل يبحث عن طريق .

× لم يستمر طويلاً ، مسئولة فى مجموعة كان قادراً على "تطفيش" الجدد كان متحمساً متشدداً صاخباً ، نجح بتشدده فى تطفيش الكثيرين ، وبعدها نسى المسئول كل شئ و .. "طفش" .

ويقول خالد "تلقيت واحدة من أهم دروس حياتى .. وهو أن التطرف الشديد والحماس المبالغ فيه والتشنج، ليست دليلاً على قدرة المناضل اليسارى على الاستمرار فى المعركة بل لعلها إيحاء بالعكس" .

ونواصل رحلتنا مع فارسنا المهيب الجميل .